

تضاربت الآراء حين أعلن خادم بن زاهر استيائه من حسين صاحب (اليوم) قائلاً: «إما أن تعطينا حقوقنا كاملة، ومنهم من كُنْ لَهُ حُبًّا عَظِيمًا، ومنهم من قال: «من تدخل فيما لا يعنيه نال ما لا يُرضيه». منذ تلك اللحظة كان عليه أن يؤمن لقمته ولقمة عياله من صيد السمك. حين يرى زملاء الماضي، يتباعدون عنه كمن أصابه الحرب، يحمل شبابه على ظهره متظاهرا باللامبالاة، لكسر حلقة الفقر التي اشتد ضيقها على أعناقهم؛ كانت ثنية تود أختها ميرة زوجة ابن زاهر، وتحرص على زيارتها، في كُلِّ مَسَاءٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وكانت تصطحب معها ابنها عبد الله ذا الأعوام الثمانية ليلعب مع ولدي خالته سليمة التي تكبره بأربعة أعوام، ومبارك الذي يصغره بعامين، ريثما تذهب الأختان إلى بَيْتِ عَمَّتَيْهِمَا عَوْشَةَ؛ حَيْثُ يَتَسَامَرُ الثَّلاثُ حَتَّى بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ تَعُودَانِ لَتُخْرِجَ ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ وَلَدَهَا وَهُوَ فِي حَالَةٍ أَقْرَبَ إِلَى التُّؤَمِ مِنْهَا إِلَى النُّقْطَةِ. هكذا كانت تمضي أمسيات عبد الله الصغير، كما كان يُناديه ابن زاهر، عدا الأمسيات القليلة التي يكون فيها والده قد عاد من السفر، فهو يأتي وحده إلى بيت خالته ميرة، يقضي الأطفال ليلتهم يلعبون «ملك أو وزير» بأن يقذف أحدهم علبة كبريت في الهواء، فإن سقطت على رأسها كان القاذف ملكا، فيحكم عليه الملك بالضرب، ويقوم الوزير بتنفيذ العقوبة. تدور العلبة على الثلاثة فينتقلون ببساطة شديدة من ملك إلى وزير إلى لص. وفي الأمسيات التي ترورهم فيها الحدة الطيبة أم عبد الرحمن الكيفية» يتحلقون حولها، وهي تحكي لهم حكاياتها المسلية الطويلة، وهي تُحَدِّثُهُمْ هَلْ أُعْجِبْتُمْ (خروفة) الليلة؟ يا الله يا أولادي. - تهدهدهم - أتمنى لكم نوماً هائئاً. ثُمَّ تُغَادِرُهُمْ سَلامٌ اقْتَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْبَحْرِ تَأْهَبُ مِيرَةً لِإِنْجَازِ أَعْمَالِهَا. وقبل الرحيل إلى منازل الصيف. لتفتش الحصر في صحن البيت، وترتب على أَحَدِ أَطْرَافِهِ طَلَبَاتِ فِرَاشِ النَّوْمِ، وتنظف شيشة (الفر) ، وَتَضَعُهُ فَوْقَ الصَّنَدُوقِ الْخَشْبِيِّ لذلك. وبالقرب منه تغرز علبة الصفيح في الرمل، كقاعدة تثبت فوقها (يحلة) الماء البارد والمعطر بالبخور. وما تنسى أن تضع بين طيات الفراش المذيع الذي ابتاعه زوجها من الكويت حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَيْهِ أَحْسَادُ الصَّبِيَةِ وَهُمْ يَتَعَارَكُونَ فِي أَثْنَاءِ غِيَابِهَا. أَحْضَرَ خَادِمٌ حَبَالًا اشْتَرَاهَا مِنْ مَرَادِ الْبِقَالِ، فَكَ حَدَائِلِ قَتِيلَةٍ احْتِيَاطِيَّةٍ لِلْفَتْرِ، سَأَغْمِسُهَا فِي الشَّحْمِ وَسَأَضْعُهَا فِي شُرُوحِ الْيَوْمِ وَتَشَقَّقَاتِهِ سَيَنْدَمُ. رَمَقَتْهُ زَوْجَتُهُ أَنْتَ تَضِيعُ وَقَتَكَ. قم واصطد لنا بعضاً من السمك - اتفقت مع يوسف على ذلك، سترين حين تستعر النار، يَقُولُ كَلَامًا غَيْرَ مَفْهُومٍ - نحن نفهمه. - ما أبردك - «هه. وَصَلَّ عَبْدُ اللَّهِ مَعَ وَالِدَيْهِ مَتَأَخَّرًا، ولكن يوم حسين لم يصل بعد، وكان مبارك قد رافق أخته لعيادة صديقتها هداية، غادرت المرأتان إلى عمتيها، ومكث الصغير مع أبيه خادم، وهي تَلَحَّفُ الْأَرْضَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ، والفر على عرشه الخشبي، يُجْهِدُ نَفْسَهُ لِيَشْكَلَ بِقَعَةٍ صَفْرَاءَ فِي قَلْبِ الْحَوْشِ الْوَاسِعِ، وقد خضع (الفريج) يضمنت متعب، تَغْلُبُ عَلَيْهِ جَوَارُ الرَّجُلِ وَالْطِفْلِ. ويصدر من عادات ابن زاهر عندما يسرح بفكره، أن يدخل عودًا مِنَ الثَّقَابِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، صَوْتًا يُشْبِهُ زَقَزَقَةَ الْعَصَافِيرِ. وقال كلاماً في سره، تعلمه من أحدهم في البحرين «المجد للفقراء». واستمر يُصدر زَقَزَقَةَ الْعَصَافِيرِ وهو يشفط ما تبقى مِنَ سَمَكِ الْعِشَاءِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ ثُمَّ يَقْدُمُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْبَرَّاحِ مَدَّ سَاقِيهِ وَأَخَذَ يَفْرَشُ مَا تَغْضُنُ مِنْ إِزَارِهِ دَاخِلَ حَضَنِهِ عَلَيْهِمَا. ثُمَّ عَرَاهُمَا بَعْدَ هُنَيْيَةٍ، فَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْحَرِّ الْخَفِيفِ الَّذِي بَدَأَ يَغْلِفُ الْحَوْ، وَظَلَّ الصَّغِيرُ يُصْغِي لِثَغَاءِ الْمَاعِزِ وَالْحِرْفَانِ فِي طَرَفِ الْحَوْشِ. كانت بقية من نعاس تداعب الصغير وبقية من هموم طفحت على صدر الكبير، أراد أن ينسى، لم يكثر الصبي لما حدث، وَظَلَّ يُتَابِعُ ابْنَ زَاهِرٍ فِي صَمْتٍ عَمِيقٍ، وَقَدْ أَسْنَدَ ذَقَّتَهُ الصَّغِيرُ إِلَى رُكْبَتِهِ وَكَانَهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلتَّخِيلَاتِ. 30 الوحدة 7 أَخَذَتِ النُّشُوءُ ابْنَ زَاهِرٍ، فَانْقَلَبَ مِنْكَبًا عَلَى بَطْنِهِ، وَأَخَذَ يُدْنِدُنُ مَعَ الْأُغْنِيَةِ كَيْفَ ذَاكَ الْحُبِّ أَمْسَى خَيْرًا. أو نائما على جنبه، رافعا رأسه على راحته، حتى أخذته سنة من النوم. وتذرع الصغير بالصبر، وقد اكتفى بأن ينظر إلى النائم، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا كَمَا كَانَ، إِلَى أَنْ فَقَرَ خَادِمٌ فَحَاةً، وَسَأَلَ الصَّغِيرَ الْوَاحِمَ: «ألم يأتيا بعد؟! رد عليه عبد الله يتناقل: ليس بعد يا أبتاه عاودته نوبة الزقزقة، وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، لَا تَخْلُصُ بِسُرْعَةٍ. لَا تَعْرِفُ شَيْئًا». كانت غلطة». اعتدل الرجل في جلسته، وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيقًا إِلَى أَنْ هَدَأَتْ حَالَتَهُ وَنَسِيَ، وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّ الصَّغِيرَ، كَمَنْ فَقَدَ شَيْئًا، وَقَالَ: لَقَدْ تَأَخَّرَا كَثِيرًا لَمْ نَلْعَبِ اللَّيْلَةَ مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا». مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا، هَذَا يَكْفِي، سَلَّمَةُ الْيَحْلَةِ وَجَلَسَ، مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا، قُلْ أَحْبَبْتُ عِنْدَ حُسَيْنٍ فِي يَوْمِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى السَّحْتِ. أُنْدُبُ حَظِّي عَلَى الشَّاطِئِ وَمَا 1 جميع الحقوق محفوظة الوزارة التربوية والتعليم لايسم زلت بصحبتني. تَرَكَنِي الْكَلْبُ أَكَابِدُ الْحُزْنَ بَعْدَ أَنْ غَمَرَنِي بِالْدِيُونِ». صاحبت أم كلثوم في غَفْوَةِ الْكَلَامِ أَعْطَنِي حَرِيَّتِي أَطْلُقْ يَدِي. فَقَالَ ابْنُ زَاهِرٍ وَقَدْ ظَهَرَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِهِ: أَعْطَنِي حَرِيَّتِي، أَطْلُقْ يَدِي هَذَا الْكَلَامُ الزَيْنِ». لا مجرد وَجَعٍ. إِنَّهُ أَشَدُّ». بِالطَّبِيعِ لَمْ يَفْهَمْ الصَّغِيرُ، لَكِنَّهُ أَحْسَسَ بِوُخْزَاتٍ مِنَ الْأَلَمِ وَظَلَّ الْإِثْنَانُ فِي صَمْتٍ وَخُشُوعٍ حَتَّى أَنْهَتِ اللَّغَايَةَ أُغْنِيَتَهَا! وَقَالَ الْمَذْمُوعُ: تُصْبِحُونَ عَلَى خَيْرٍ، بَعْدَ أَنْ أَفْرَغَ هُمُومَ الْعَالَمِ فِي آذَانِهِمَا. وَكَانَ الصَّبِيُّ يُنْصِتُ فِي غَرَابَةٍ، لِاحْتِلَالِ مَكَانِ الْإِذَاعَةِ الَّتِي انْتَهَتْ مُبَكَّرًا، فَصَفَنَ الْوُجُودَ كُلَّهُ، كَانَ اللَّيْلُ يَتَوَكَّلُ بِخَطَوَاتِهِ الصَّامِتَةِ، قَالَ ابْنُ زَاهِرٍ «أدن مني يا صغيري». ثم قال: أتعرف الظلم يا ولدي؟»، ما الظلم يا أبت؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ تَجَاعِيدِ وَجْهِهِ: «الظلم هو أن يوجد فينا واحد مثل

حسين، هُوَ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ ونحن لا نملك ما نشد به الرمح تصاعد الدم في رأس ابن زاهر فأصبح كالمرجل، وأردف وهو يُشير إلى الصبي بسبابته: «اسمع مني يا ولدي، ها هو أبوك يدور كالثور المربوط في (المنيور) من الهند إلى إفريقيا إلى المملكة، يصب الخير في جعبة حسين ويزداد أبوك فَقْرًا عَلَى فَقْرِهِ، سيقذف به في البحر، كما فعل معي ها أنت تراني كآلة المعطوبة. كُن بحارا – يا ولدي – فنحن كالسمك يُميتنا البعد عن البحر، ولكن لا تكن ثورًا يدور لصالح أَحَدٍ فَالشَّيْرَانُ يُحِبُّ أَنْ تتحد لصالحها المشترك». كانت الثواني تحيك حباثلها، فها هو النور المحدور يتفجر كالجسم، عصر رأسه بكلتا يديه. مادت به الأرض. ارتفع الفنر إلى السماء، سقطت السماء بفضياتها على الأرض. ارتفع ثغاء الجداء يدق في رأسه المعطوب كناقوس ضخم تصدع رأسه، واحتقن وجهه تَوَرَّمَت شَفَتَاهُ وتهدلت الشفة السفلى. صرح بأعلى صوته: «آخ الصداع. لم يفعل الصَّبِيُّ شَيْئًا سَاعَتَهَا؛ وسيف (المُطَوِّع)، وَلَمْ يحضر حسين صاحبُ اليومِ، وَكَذَلِكَ عبد الله الصغير